علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان

"أخان تشاجرا.. فما بالك تدخل فيما بينهما وتعلي من نباحك.. إن لم تخرس نباحك، أرسلت إليك بجيش أوله عندك وآخره عندي، يأتونني برأسك أقدِّمه لعلي".

كان هذا هو الرد الذي تلقَّاه قيصر الروم من معاوية بن أبي سفيان، عندما عرض عليه أن ينصره على علي بن أبي طالب في الحرب التي وقعت بينهما، وكان قد تلقَّى رفضًا مماثلًا من علي على نفس العرض.

الأخان المتشاجران.. الأول هو علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله، صلوات ربي وسلامه عليه، وأول من أسلم من الفتية، وزوج ابنة الرسول فاطمة الزهراء، ووالد سيدَي شباب أهل الجنة الحسن والحسين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

أما الثاني فهو معاوية بن أبي سفيان.. ابن سيد قريش أبا سفيان ابن حرب وهند بنت عتبة، أسلم يوم فتح مكة وقيل إنه أسلم قبلها بسنوات وكتم إسلامه، كتب الوحي بين يدي الرسول، وشارك في العديد من الغزوات، حتى ولاه الفاروق عمر بن الخطاب ولاية الكوفة، ثم ضم إليه فيما بعد دمشق وما حولها.

بعد حدوث الفتنة الإسلامية الكبرى، ومقتل عثمان بن عفان، بايع كبار الصحابة الإمام علي بن أبي طالب لخلافة المسلمين، وانتقل إلى الكوفة ونقل عاصمة الخلافة إلى هناك، وبعدها انتظر بعض الصحابة أن يقتص الإمام من قتلة عثمان، لكنه أجَّل هذا الأمر وينقسم سبب تأجيل هذا الأمر لرؤية طرفين اثنين.

يرى أهل السنة أن علي بن أبي طالب، لم يكن قادرًا على تنفيذ القصاص في قتلة عثمان، مع علمه بأعيانهم، وذلك لأنهم سيطروا على مقاليد الأمور في المدينة النبوية، وشكَّلوا فئةً قويةً ومسلحة كان من الصعب القضاء عليها، لذلك فضَّل الانتظار ليتحين الفرصة المناسبة للقصاص، ولكن بعض الصحابة وعلى رأسهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رفضوا هذا التباطؤ في تنفيذ القصاص، ولما مضت أربعة أشهر على بيعة علي دون أن ينفذ القصاص، خرج طلحة والزبير إلى مكة والتقوا بأم المؤمنين عائشة، التي كانت عائدة من أداء فريضة الحج، واتفق رأيهم على الخروج إلى البصرة، ليلتقوا بمن فيها من الخيل والرجال ليس لهم غرض في القتال، وذلك تمهيدًا للقبض على قتلة عثمان، وإنفاذ القصاص فيهم.

بينما يرى الشيعة أن علي بن أبي طالب، أجَّل الحكم بالقصاص لسببين: الأول هو الانتظار حتى تهدأ الفتنة، لم يكن الإمام قادرًا على تنفيذ القصاص في قتلة عثمان لعدم علمه بأعيانهم، لذلك فضَّل الانتظار لتبيان القتلة، أما الثاني فهو أخذ البيعة من أهالي الأمصار وعزل الولاة وتعيين ولاة جدد، وذلك لتقليل سخط الناس على بعض الولاة، حيث اتهم أهل الشام ومصر الولاة بالعمل لمصالح شخصية على حساب مصالح الناس، وعدم الحفاظ على سنة النبي، فأراد الإمام بذلك إحقاق الحق وتهدئة النفوس وإعادة الأمور إلى نصابها.

ويفسِّر الشيعة خروج طلحة والزبير بأنهما بايعا الإمام طمعًا في منصب، فقد كان طلحة يرجو اليمن والزبير يرغب في العراق، وهو ما لم يناله، لذلك خرجا عليه واتخذا من القصاص لمقتل عثمان حجةً لعزله عن الخلافة أو قتله، أما أم المؤمنين عائشة، فهي من حرَّض الناس على قتل عثمان، فهي من قالت: "اقتلوا نعثلًا"، (وهو لقبٌ أطلق على عثمان)، فقد كفر"، وهي التي أثارت الحرب وحرَّضت طلحة

والزبير وأخبرتهم بأن الإمام علي، هو من قتله أو سهَّل مقتله، كما أنها كانت تكره علي لعدة أسباب على رأسها: موقف الإمام علي منها يوم حادثة الإفك، حيث أشار على الرسول بطلاقها، كما أنه يروى أنها سجدت لله شكرًا يوم وفاة علي.

قرر الزبير وطلحة ومن معهما بعد ذلك، الخروج إلى البصرة ثم الكوفة والاستعانة بأهلها على قتلة عثمان منهم أو من غيرهم، ثم يدعون أهل الأمصار الأخرى لذلك، ولما وصلوا البصرة أرسل لهم والي البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري، يسألهم عن سبب قدومهم، فأخبروه أنهم أتوا مطالبين بدم عثمان، رأى عثمان بن حنيف أن يمنعهم من دخول البصرة، حتى يأتي علي بن أبي طالب، فقام طلحة ثم الزبير يخطبان في أنصار المعسكرين، فأيدهما أصحاب الجمل، ورفضهما أصحاب عثمان بن حنيف ثم قامت أم المؤمنين عائشة تخطب في المعسكرين فثبت معها أصحاب الجمل وانحازت إليها فرقة من أصحاب عثمان بن حنيف.. جاء بعد ذلك حكيم بن جبلة العبدي وهو من قتلة عثمان وسب السيدة عائشة.. وكان لا يمر برجل أو امرأة ينكر عليه أن يسب عائشة إلا قتله فانتشب القتال بين المعسكرين واقتتلوا قتالًا شديدًا، فقتل عددًا ممن شارك في قتل عثمان قدر بسبعين رجلًا، واستطاع الزبير وطلحة ومن معهما أن يسيطروا على البصرة، وتوجه الزبير إلى بيت المال، وأخلى سبيل عثمان بن حنيف.

وصل علي بن أبي طالب إلى ذي قار، وأرسل الرسل بينه وبين طلحة والزبير وعائشة فأرسل القعقاع بن عمرو الذي سعى بين الفريقين بالصلح.. اتفقا بالفعل على الصلح، وعاد القعقاع إلى علي وأخبره بما فعل، ولكن هذا الأمر لم يرضِ جماعةً من قتلة عثمان كالأشتر النخعي وشريح بن أوفى وعبد الله بن سبأ، فأشعلوا القتال بين الطرفين مرةً أخرى.

حاول طلحة إيقاف القتال، فأخذ يهتف في الجمع بإيقافه، حتى أصابه سهم، فلم يزل دمه ينزف، حتى مات، فكان أول قتيل في المعركة.

يروى في عدة روايات تاريخية أن قاتل طلحة، هو مروان بن الحكم مؤجج الفتنة الكبرى منذ بدايتها.. ومن هذه الروايات ما ذكره الذهبي في "سير أعلام النبلاء "عندما قال إن مروان رمى طلحة بسهمٍ فقتله في الحال.

انصرف الزبير عن القتال بعد وفاة طلحة وقرر ترك ساحة القتال.. اتهمه البعض بالجبن، ولكن أول من سل سيفًا في سبيل الله لم يلقِ بالًا بهذه الترهات، ولما رجع الزبير متوجها إلى المدينة لحقه ابن جرموز بوادي السباع فقتله وهو يصلي.

أما عن السيدة عائشة، فقد زارها عليٌ ورحَّبت به وبايعته وجلس عندها ثم ردها إلى المدينة معززةً مكرمة، كما أمر الرسول.

عندما استلم علي بن أبي طالب الحكم، امتنع معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام عن مبايعته خليفةً للمسلمين حتى يقتص من قتلة عثمان، فأرسل علي بن أبي طالب جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه للمبايعة، وعندما قدم جرير إلى الشام استشار معاوية عمرو بن العاص، فأشار إليه بجمع أهل الشام والخروج نحو العراق للمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان.. التقى الجيشان في صفين لتبدأ المعركة، في اليوم الأول أخرج علي بن أبي طالب الأشتر النخعي على رأس مجموعة كبيرة من الجيش، وأخرج معاوية بن أبي سفيان حبيب بن مسلمة على رأس مجموعة كبيرة من جيشه، ودارت الحرب بين الفريقين بشدة منذ الصباح وحتى المغرب وقتل الكثير من الفريقين، وكان قتالًا متكافئًا، في اليوم التالي أخرج علي بن أبي طالب، هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وهو أحد المجاهدين الذين لمعت أسماؤهم كثيرًا

في فتوح فارس والروم، وأخرج معاوية بن أبي سفيان أبا الأعور السلمي.. ودار قتال شديد بين الجيشين، فتساقط القتلى من الفريقين، دون أن تكون الغلبة لأحدهما.

في اليوم الثالث، خرج على جيش العراق عمار بن ياسر، وكان حينذاك شيخًا قد تجاوز التسعين من عمره.. وخرج على جيش الشام عمرو بن العاص، وتقاتل الفريقان من الصباح حتى المغرب، ولم يتم النصر لأحد الفريقين على الآخر، وفي اليوم الرابع خرج على رأس فريق علي بن أبي طالب، محمد بن علي بن أبي طالب المسمى بمحمد بن الحنفية.. وعلى جيش الشام عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ودار القتال بين الفريقين من الصباح إلى المساء، وسقط القتلى من الطرفين، ثم تحاجزا ولم تتم الغلبة لأحدٍ على الآخر.

في اليوم الخامس كان على فريق علي بن أبي طالب عبد الله بن عباس وعلى الفريق الآخر الوليد بن عقبة وتقاتل الفريقان طوال اليوم دون أن يحرز أحدهما النصر.. أما في اليوم السادس فقد ولى عليٌ على فريق العراق قيس بن سعد.. وولى معاوية على جيش الشام شرحبيل بن ذي الكلاع، وقد هو في جيش معاوية وقتل والده ذو الكلاع الحميري في هذه المعركة.. ودار قتال شديد بين الفريقين من الصباح إلى المساء، تساقط خلاله القتلى وكثر الجرحى، دون أن تكون الغلبة لأحد الفريقين، وفي اليوم التالي خرج للمرة الثانية كل من الأشتر النخعي على مجموعة من جيش العراق، وحبيب بن مسلمة على جيش الشام.

في مساء هذا اليوم، تبين أن استمرار هذا الأمر من إخراج فرقة تتقاتل مع الفرقة الأخرى دون أن يكون النصر لأحد، سيأتي على المسلمين بالهلاك ولن يحقق المقصود، وهو إنهاء هذه الفتنة، وكان

علي بن أبي طالب يفعل ذلك ليجنب المسلمين خطر التقاء الجيشين الكبيرين، ولئلا تراق دماء كثيرة، فكان يخرج مجموعة من الجيش لعلها أن تهزم المجموعة الأخرى فيعتبروا ويرجعوا عما هم عليه من الخروج على أمير المؤمنين، وكذلك كان معاوية بن أبي سفيان يخرج مجموعة من جيشه فقط، دون الجيش كله ليمنع بذلك إراقة دماء المسلمين.. فقرر علي بن أبي طالب أن يخرج بجيشه كله لقتال جيش الشام، وكذلك قرر معاوية بن أبي سفيان، وبقي الجيشان طوال هذه الليلة يقرأون القرآن ويصلون ويدعون الله أن يمكنهم من رقاب الفريق الآخر جهادًا في سبيل الله، ودوى صوت القرآن في أنحاء المعسكرين.. وبايع جيش الشام معاوية على الموت، فليس عندهم تردد فيما وصلوا إليه باجتهادهم، ويستعدون للقاء الله تعالى على الشهادة في سبيله، ومع أنهم يعلمون أنهم يقاتلون فريقًا فيه كبار الصحابة كعلي بن أبي طالب وسلمان الفارسي وعبد الله بن عباس وغيرهم، إلا أنه كان معهم أيضًا الكثير من الصحابة كمعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من أفقه الصحابة، ولم يكن يرغب على الإطلاق أن يقاتل في صف معاوية ولا في صف علي ولم يشترك في هذه المعركة، إلا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أوصاه بألا يخالف أباه طيلة حياته، وقد أمره أبوه عمرو بن العاص أن يشارك في القتال، فاشترك في الحرب غير أنه لم يقاتل ولم يرفع سيفا في وجه أحد من المسلمين.

في اليوم الثامن خرج علي بن أبي طالب بنفسه على رأس جيشه، كما خرج معاوية بن أبي سفيان على رأس جيشه، ودار بين المسلمين من الطرفين قتال عنيف وشرس لم يحدث مثله من قبل، فهؤلاء هم الأسود الشجعان الذين قهروا دولة الروم ودولة الفرس، وثبت الفريقان لبعضهما ولم يفر أحد، ودار القتال من الصباح حتى

العشاء، وتحاجز الفريقان بعد سقوط الكثير من القتلى والجرحى، وفي اليوم التاسع صلى علي بن أبي طالب الصبح، وخرج مباشرةً لساحة القتال مستأنفًا من جديد، كان على ميمنة علي بن أبي طالب عبد الله بن بديل، وعلى ميسرته عبد الله بن عباس، فهجم عبد الله بن بديل على ميسرة معاوية بن أبي سفيان وعليها حبيب بن مسلمة، وأجبرهم عبد الله بن بديل على التوجه إلى القلب، وبدأ جيش علي في إحراز بعض من النصر، ويرى ذلك معاوية، فيوجه جيشه لسد هذه الثغرة، وينجح جيشه بالفعل في سد الثغرة ويردون عبد الله بن بديل عن ميسرتهم، وقتل في هذا اليوم خلق كثير، وانكشف جيش علي بن أبي طالب حتى وصل الشاميون إلى علي الذي قاتل بنفسه قتالًا شديدًا.. وتقول بعض الروايات إنه قَتل وحده في هذه الأيام خمسمائة من الفريق الآخر.

بدأ جيش علي بن أبي طالب في الانكسار بعد الهجمة التي شنها عليها جيش معاوية بن أبي سفيان، فأمر علي بن أبي طالب الأشتر النخعي أن يهب لينقذ الجانب الأيمن من الجيش.. واستطاع بقوة بأسه وكلمته على قومه أن ينقذ الموقف، وأظهر بأسه وقوته وشجاعته في هذا الموقف، ورد الأمر إلى نصابه، واستطاعت ميمنة الجيش السيطرة مرةً أخرى على أماكنها التي كانت قد انسحبت منها.. وقتل في هذا اليوم عبد الله بن بديل، وتكاد الكرة تكون على جيش علي لولا أن ولَّى علي على الميمنة الأشتر النخعي.

عندما رأى معاوية بن أبي سفيان انتصارات جيش علي على جيشه وقد قرب منه القائد مالك الأشتر مع مجموعته، دعا عمرو بن العاص إلى خطة للوقوف أمام هذه الانتصارات المتتالية، فقام عمرو بن العاص، وهو أحد دواهي العرب، بخدعة، حيث دعا جيش معاوية إلى رفع المصاحف على أسنّة الرماح، ومعنى ذلك أنّ القرآن حكم بينهم

ليدعوا جيش علي إلى التوقف عن القتال، ويدعون عليًا إلى حكم القرآن، وبالفعل نفذ عمرو خطته وقبل علي بالتحكيم.

ذهب كل من الحكمين إلى كل فريق على حدة، وأخذا منهما العهود والمواثيق أنهما -أي الحكمان- آمنان على أنفسهما وعلى أهليهما، وأن الأمة كلها عون لهما على ما يريان، وأن على الجميع أن يطيع ما في هذه الصحيفة، فأعطاهم القوم العهود والمواثيق على ذلك، فجلسا سويًا واتفقا على أنهما يجلسان للحكم في رمضان من نفس العام.

كُتبت صحيفة التحكيم على النحو التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله -عز وجل وكتابه- ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله -عز وجل- بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله -عز وجل- عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله -عز وجل- فالسُنة العادلة الجامعة غير المفرقة".

شهد هذا الاجتماع عشرة من كل فريق.. فمن أصحاب علي بن أبي طالب شهد كلٌ من: عبد الله بن عباس والأشعث بن قيس الكندي وسعيد بن قيس الهمداني وحجر بن عدي الكندي وعقبة بن زياد الحضرمي.. بينما شهد من أصحاب معاوية بن أبي سفيان كلٌ من: أبو الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة الفهري وبد الرحمن بن خالد المخزومي ويزيد بن الحر العبسي وحمزة بم مالك الهمداني

اجتمع الحكمان في دومة الجندل بأذرح، وكان عمرو بن العاص المفاوض من قبل جيش معاوية بن أبي سفيان وأبو موسى الأشعري

المفاوض من قبل جيش علي بن أبي طالب قد اتفقا في النهاية على خلع معاوية وعلي، وترك الأمر للمسلمين لاختيار خليفة غيرهما.. فخرج الحكمان للناس لإعلان النتيجة التي توصلا إليها، فأعلن أبو موسى الأشعري خلع علي، ومعاوية فقام عمرو بن العاص وقال: "إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبِّت صاحبي معاوية".. فقال له أبو موسى الأشعري: "غدرت وفجرت"، ودار عراك شديد بينهم، وبعد حادثة التحكيم عاد القتال من جديد واستطاع معاوية أن يحقق بعض الانتصارات، وضم عمرو بن العاص، مصر، بالإضافة إلى الشام، وقتل واليها محمد بن أبي بكر، بينما قاتل علي الخوارج وهزمهم في معركة النهروان، حيث انسحبوا من جيشه، ثم قاموا يقطعون الطرق ويسألون الناس حول آرائهم في الخلفاء الأربعة، فيقتلون من يخالفهم في الرأي بشكل بشع، وهو ما يحدث الآن في بعض بلادنا العربية ويعرف باسم "إعدام حسب الهوية".

اتفق بعض الخوارج على قتل علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وندبوا ثلاثة منهم لتنفيذ ذلك الأمر.. نجح عبد الرحمن بن ملجم في قتل الإمام علي وهو في طريقه لصلاة الفجر، بينما لم ينجح زميله في قتل معاوية وأصابه في إليته وهو يركع، أما زميلهما الثالث فقد تربص لعمرو بن العاص الذي تخلَّف عن صلاة الفجر، وأناب عنه خارجة الذي قتل مكانه.

بمقتل الإمام علي، انطوت تلك الصفحة المليئة بالدماء من تاريخنا الإسلامي، واكتمل المشهد بتنازل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وبتوليه انقضى عهد الخلفاء، وبدأ ملك الدولة الأموية.